Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Prof. Dr. Nihad M. ÇETİN Bölümü

المنهج عند الفارابي

للدكتور

عثمان عيسى شاهين

أستاذ الفلسفة بجامعة الخرطوم

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Prof. Dr. Nihad M. ÇETİN Bölümü
Dem. Kayıt No: 3054
Tasnif No:

البحث الذي يتقدم به المؤلف ، باسم جامعة الخرطوم ، الى مهرجان الفارابي ، الذي سينعقد في بغداد بين التاسع والثامن عشر من تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٧٥ ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور أحد عشر قرناً على مولد الفيلسوف الكبير

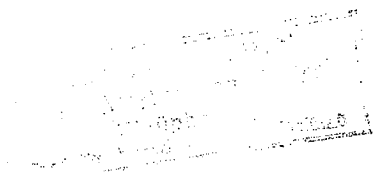

لا ضير في أن يشير الباحث في ايجاز ، ــ وهو يحاول دراسة المنهج عند الفارابي ، ــ الى حياته وثقافته ، لان هذه الاشارة قد تعاون في تفهم التيار الحضاري ، الروحي ، الذي كان يعيش المؤلف فيه .

ولد فيلسوفنا ، وهو من مدينة فاراب ،في اقليم خراسان التركي سنة ٢٥٩ =٨٧٠ ميلادية . دخل العراق ، استوطن بغداد ، توفى عام ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ ميلادية ، وله من العمر ثمانون عاما . كان الفارابي ، وهو صاحب رسالة قضى حياته كلها ايمانا بها وعملا لها ، ــ محبا للاسفار والتنقل ، لا يستقر في بلد واحد بعض الوقت حتى يرحل منه الى غيره . اعطته الاسفار النظرة الشافية ، التجربة الواعية والتأمل الفريد . كان تصور رسالته كفيلسوف يخرجه ، فى بعض الاحوال ، من عزلة النظر والتأمل ، يصله بجوانب الحياة العملية ، تتمثل هنا ، ومن غير شك ، تصوراته في آراء أهل المدينة الفاضلة ، تتناغم ، مع هذه وبحق ، جوانب دراساته ، فى بعض مصنفاته الاخرى ، عن الفلسفة الاجتماعية والسياسية .

لا يستطيع الكاتب أن يتجاهل ، ــ وهو يدرس جوانب الفلسفة الفارابية ، ــ تأثير منهج ارسطاطاليس الاستاذ على المعلم الثاني . قد يتساءل عن الخصائص الذاتية التي يمكن أن تجمع أو تفرق بينهما من حيث طبيعة الدراسة والاداء ، الى أي مدى يمكن تفهم نصوص الفيلسوفين حتى تستخرج منها النظرة الثاقبة والجوهرية ؟ تسمح لنا دراسة المنهج الطبيعي عند ارسطاطاليس بأن نتعرف على نظرته للعالم . من الصعوبة أن ندقق ، نسبة لاختلاف الموضوعات المتشابكة من جهة ، ولان الطبيعيات تشتمل عنده على

علم الحياة ، والكيمياء من جهة ثانية • ان ما يمكن أن يشار اليه الان باسم « الطبيعة » ، وما تستدعيه هذه المواد المتباينة من معالجات متنوعة ،يعد المظهر للبحوث الطبيعية المختلفة عند ارسطاطاليس • اننا نتساءل اذن ، قبل كل دراسة ، عن الوحدة ، أو حتى عن الوجود لمنهج طبيعي •

تحتل التجربة في هذه البحوث عن الفلسفة الطبيعية ، من حيث النظر والواقع ، مكانا ذا نظرة اولى متفردة • اننا سوف نحاول ، من غير أن نزعم احصاء جميع الوقائع التي سجلها ارسطاطاليس ، أن نحدد بالدقة طبيعة ، قيمة والدور الذي يمكن ان تلعبه التجربة فى المنهج ، هذه التجربة التي لانجد لها المكان الواضح المتفرد والمرموق عند الفارابي• اننا سوف نحاول اكتشاف كيف أن هذه المعطيات الثرة ، الغنية والمتنوعة قد وضعت فى نظام ، كيف أن عملية التنظيم ، اذا نظر الى انها ذات أهمية بالنسبة لعملية التجربة ، قد استطاعت أن تحدد الرابطة بينها وبين الجوانب الاخرى •

ان التصورات الذهنية الكبرى ، ــ التي تصلح كاطار لجميع البحوث الارسطية ، ــ من امثال الجوهر والعرض ، القوة والفعل ، التناهي واللاتناهي، تتضح لنا حقيقة وكأنها خصائص للفلسفة والعلم ، انها تقوم الاداة الصادقة للمعرفة عنده • من أين استطاع أن يستخرج نتائج هذه كلها ؟ تلكم هي المشكلة الكبرى التي يضيء حلها المنهج ، والتي يجب أن تقود ، على وجه الخصوص ، الى تفهم الالتباسات التي ظهرت أكثر من مرة في مذهب المعلم الاول • أو لم نجد ثمة التباسات في كتب الفارابي ، وخاصة حينما نتساءل عن المنهج الذي اتبعه في المدينة الفاضلة ، هل ثمة واحد أم مناهج متباينة تقود اليها طبيعة الموضوعات التي يعالجها المؤلف ؟

كان الفارابي يعنى نفسه ، شأنه ككل فيلسوف او كاتب أو فنان ، ومهما يوجه اليه من نقد عابر ، بالتفكير المتصل في المنهج ، ينأ من أجله عن الناس كي يخلص الى تأملاته • ألم يقل ان مقامه بدمشق لم يكن غالبا الا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، او لم يذكر أنه كان أزهد الناس في الدنيا ، لا يحتفل بأمر ملبس ولا مسكن ؟ كان الفارابي يعايش النصوص ، وهذا أدق خصائص

المنهج ، لمدى طويل ، وقد وجد مكتوبا بخطه على كتاب النفس لارسطاطاليس: « قرأت هذا الكتاب مائة مرة » • لم يضع ارسطاطاليس في الطوبيقا ، المنهج الجدلي من حيث معارضته للمنهج العلمي ، ولكن نظر اليه من حيث معارضته للمناهج العلمية المختلفة • انه أصر ، في الحقيقة ، على الجانب الذي يرى بأن المنهج الجدلي عام ، على حين أن المناهج العلمية خاصة ، تتسق مع موضوعها ، تتميز بالتحديد ، ولا يمكن أن تتجاوز هذا العلم الى ذاك • مهما يشار ، من ناحية ذاتية باطنية ، الى بعض فصول المدينة الفاضلة التي كان المنهج يستدعي تقديمها أو وضعها في موضع آخر ، مهما يقال عن هذا ،ــ الناقد ليس هو الكاتب ،ــ فأن جوانب الاتساق والنظام تبدو ماثلة للعيان • إنّ ما يستأثر باللب ، منذ البداية ،في بحوث أرسطاطاليس ،ليس هو المجهود الذي بذل في تنظيم العلوم ووضعها من ناحية منهجية ، ليس هو الحلم باقامة منهج كلي شامل كما أراده ديكارت ، ولكن هو ذلك اليقين ،هو تلك التصريحات التي تؤكد كينونة كل علم ، وخاصية منهجه ، مخالفة بهذا التصورات الغامضة ، غير المحددة ، والتي يمكن ان تطلق عليهاصفةالتعميم•

قد يتساءل الباحث ، وهو يحاول أن يتفهم طبيعة خاصية المنهج والعناصر الذاتية التي تكون الفلسفة الفارابية ، كيف استطاعت أن تحقق هذه ماكان مرجوا منها في مسار الحياة الروحية عند المسلمين ؟ كانت اجزاؤها ترتبط بعضها بالبعض ارتباطا محكما وثيقا ، يتمثل فيها عنصر الانتقاء والتوفيق • كانت تنظر الى الامور من كل ناحية ، تحاول البحث في الاحتمالات الممكنة ، علها تصل بهذا الى البناء في المنهج والاسلوب • اذا كان الاشتغال بالفلسفة لا ينبع ،في الحقيقة ، طمعا في الشهرة او الرياسة أو المال ، فأن الفيلسوف الكامل يحصل ،ــ في تفرقة منهجية واضحة ، ــ وكما هو الحال بين تصور عالمي الحقائق والظواهر عند أفلاطون ، على العلم الكلي ، على الفضائل النظرية أولا ،ثم العملية ببصيرة يقينية • يحاول الفيلسوف الزور أو الباطل أن يشرع من العلوم ماهو غير مهيأ له • والفارابي ، الذي انشأ مذهبا فلسفيا متكاملا ، أخذ عنه ابن سينا ، ابن رشد ، وغيرهم من فلاسفة العرب ، ــ اذا

أشرنا الى هذا فى ايجاز ، ــ والذي أراد أن يعيش وفقا للمبادىء التي وضعها في مذهبه ، يحاول أن يربط ، أن يوحد بين الفلسفة وبقية العلوم الأخرى • مهما قيل عن كتابه : الجمع بين رأيي الحكيمين ، من حيث المحتوى ، مهما وجه اليه من نقد ، فأنه يعد ــ من ناحية منهجية ليس غير ــ محاولة صادقة للدفاع بحرارة عن وحدة الفلسفة • لم ينس أن يقول ، في بعض دراساته ، ان الملة والدين يكادان يكونان اسمين مترادفين • توجد في الملة التي هي شبيهة بالفلسفة ، جوانب نظرية وعملية • يعاون العلم البرهاني ، وهو جزء من الفلسفة ، في تصور الافعال المقدرة في الملة • تعاون الاراء النظرية في الملة الفاضلة على وصف الله تعالى ، الملائكة الروحانيين ، مراتبهم ومنازلهم من الله تعالى ، على حين أن الجوانب الارادية منها تعاون على وصف الانبياء الملوك الافاضل ، أئمة الهدى والحق •

طبعت الفلسفة الأرسطية ، وهي تحاول ان تفرق فى كثير من دراساتها بين الجوانب النظرية والارادية ، تصوري الفارابي وابن سينا • ان مايستأثر باللب ، منذ البداية ،في الطبيعيات الارسطية ، هو اختلاف الموضوعات التي تكونها ، حيث نجد بحوثا ذات صبغة تجريدية ، رياضية ، حيث تتكاثر البراهين ذات المظهر الجبري ، اذ تحل الحروف مكان الموضوعات الجامدة • ان هذا الاختلاف في التقديم ينتسب ،في أصح احواله ، الى تباين الموضوعات ، اذ أن منهج العلم يخضع الى موضوعه • لا تختلف المناهج فقط من حيث وجود الانظمة العلمية الكبرى المتباينة ، من حيث التأمل ، الفعل ، الانتاج ، ولكنها كذلك في داخل كل واحد من هذه المجموعات ، في الطرائق التي يجب أن تكون بموجبها متباينة ، متنوعة ، ومتناغمة مع طبيعة الموضوعات • أن العلم الذي يتمثل موضوعه في الكائنات التي لا تقبل التغير ، والتي ليست الا ذات وجود تجريدي ، لا يمكنه أن يستخدم نفس المنهج كما هو الحال في العلم الذي يعالج ويدرس الاشياء المتحركة والتي لها كيان واقعي ، حقيقي ، واضح وملموس • يجب أن نذهب أكثر بعدا ونعترف ان العلم الذي يتفرس الكائنات المتغيرة يحتوى ، حقيقة على دراسة أشياء جد مختلفة • ليس ثمة غرابة في أن

هذه الموضوعات المختلفة تتضمن معالجة تتسم بالتباين ، وارسطو طاليس يقول في هذا صراحة : « ان الكائنات الازلية تتطلب مبادىء خالدة ، على حين ان الكائنات الفاسدة تتطلب أخرى فاسدة » •

يبدو ان اختلاف الموضوعات التي تحتوى عليها الطبيعيات يجعل من المستحيل ، حسب اعتراف ارسطاطاليس نفسه ، وحدة المنهج ممكنة ،كما ان تباين موضوعات المدينة الفاضلة يجعل هذا التصور صحيحا وحريا أن يلتفت اليه الكاتب حينما يتحدث عن المنهج • قد يعالج ارسطو المشكلة الواحدة من زوايا مختلفة ، واذا لم تلق هذه التفرقة الشرح الكامل ، فأنها قد تدرس تصور الحركة من جوانب تفسيرية متعددة • يشير ارسطو الى الحركة في الطبيعيات ، في رسالته عن السماء ، وفي غيرهما مما جاء به من أعمال • ان الحركة الوحيدة التي يعدها قمينة بالدراسة العلمية هي ذات المبدأ الداخلي ، انه قد سعى ليشرح ، على ضوء هذا النوع من الحركة ، تصور انتقال العناصر نفسها • قد يسقط الحجر لانه يرغب ، وعلى كل حال ، فى السقوط • يعد هذا القول من أهم الخصائص الثرة والمميزة لديناميكية ارسطو والتي تجعلها مباينة لتصورنا المعاصر • ان مثال العلية الذي يقترحه ويحاول أن يرد اليه كل انتاج للحركة ، هو علية العصاة التي تدفع الحجر ، يعني بهذا أنها حركة ذات تصور قسري • أو كما يقول هو في نص الطبيعيات : « ان العصاة التي تحرك الحجر تحركها اليد ، ويحرك هذه الانسان » •

يعتبر كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، اذا نظر اليه ،على صغر حجمه ، ومن ناحية المنهج ،ــ وهو لاينسى أن يعرض الى الطبيعيات كذلك ، ــ مجموعة لاهم المسائل الفلسفية ، السياسية والاجتماعية • يختلف ، من حيث أبوابه ، عن النجاة لابن سينا • يتميز المؤلف ، في فصوله الاولى عن الموجود الحقيقي ، فاعل وصانع العالم ، بالوقوف الطويل عند شرح ومناقشة دلالة الالفاظ ، كما يلاحظ الاتصال بين نهاية كل فصل وبداية فصل آخر جديد • اذا كان للبرهنة الرياضية ، بما تتميز به من دقة وقوة وكمال ، صدى في تنظيم الافكار ، في الاتصال العضوي الضروري لكل بحث ولكل منهج ، الا أنها